مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى مُمْتَنًّا على عباده بما سخَّر لهم من الليلِ والنهار، اللذَيْنِ لا قوَامَ لهم بدونهما. وبيَّن أنه لو جعل الليلَ دائماً عليهم ﴿ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ لأَضرَّ ذلك بهم، ولَسَئِمَته النفوسُ. ولهذا قال تعالى: ﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ ﴾ أي: تُبصرون به، وتستأنسونَ بسببه ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي: دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأَضرَّ ذلك بهم، ولَتَعِبَت الأبدانُ وكَلَّتْ من كثرةِ الحركات والأشغال. ولهذا قال تعالى: ﴿ مَن إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ ﴾ أي: تستريحونَ من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أي: بكم ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

(١) القصص: ٧١- ٧٣.

وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي: خلق هذا وهذا؛ ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي: في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي: في النهار، بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال. وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومَن فاتَهُ شيءٌ بالليل، استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل. كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم: ذاكَ ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وتلكَ مِنَّةٌ من الله على عباده، ورحمةٌ بهم بما سَخَّر من الليل والنهار، والناسُ - وقد تعوَّدوا ذلك - قد يغفلون عن هذه المِنَّة وهذه الرحمة، مع أن الله قد جعل لهم الليل والنهار؛ ليكونا تبصرةً لهم وتذكرة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

والله ﷻ يُخاطبنا بالنعمة سَلْباً وإيجاباً؛ لنعرفَ للنعمةِ قَدْرَها، ونُقدِّم شُكْرَها،

(١) الفرقان: ٦٢.

ونُخلص في عبادةِ ربِّنا ولا نُشرك به. فماذا يكون الحال لو جعل الله الليل دائماً سرمداً إلى يوم القيامة ؟ أو جعل النهارَ دائماً مستمرًّا إلى يومِ القيامة ؟ فمَن في الحَالَيْنِ يأتينا بليلٍ نسكُنُ فيه ؟ أو بضياءٍ نبتغي فيه من فَضْلِ ربِّنا ؟ مَن إلهٌ غير الله ؟

ولكي تظلَّ التذكرة والعبرة قائمةً في حياة الناس، موصولةً بهم، يقلِّبُ الله الليلَ والنهار؛ إبقاءاً للنعمة مُقترنةً بالعِبرة والتذكرة.

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

والله الذي أنعمَ علينا بنِعَمٍ لا تُحصى يُذكرنا بها؛ لنعرف لكُلِّ نعمةٍ شُكرَها، ولكي نحافظ على الشُّكر ونُداومَ عليه.

فنعمةُ الماء قد جعلَ الله منها كُلَّ شيء حيٍّ، ولا حياةَ تقومُ بغير الماء. والله ﷻ يُذكرنا بالنعمة سلباً وإيجاباً.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢)، ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٣)

والماءُ – حين ينـزلُ من السماء – قد يجعله الله غَدَقاً، وقد يجعله غَرَقاً. فماذا يكون الحال إنْ فُقِدَ الماء، أو حِيلَ بيننا وبينه ؟!

---

(١) النور: ٤٤.
(٢) الواقعة: ٦٨- ٧٠.
(٣) النحل: ٦٥.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

مَن إلهٌ غير الله يأتينا بليلٍ، أو يأتينا بضياء، أو يأتينا بماء ؟ ولا غنى لنا عن ماءٍ أو ليلٍ أو نهارٍ.

ألاَ يدعونا ذلك - والقرآن الكريم يلفتُ أنظارَنا إلى نِعَمِ الله سلباً وإيجاباً - ألاَ يدعونا ذلك أن نَفِرَّ إلى الله في جميع أمورنا، وأن نُخلصَ القَصْدَ له والتوكُّلَ عليه، وأن نعبده ولا نشرك به؛ لتكون للنِّعَمِ دلالتها فينا، وحكمتها في سلوكنا وروابطنا، فإن الله يخاطبنا بالنِّعَمِ؛ لنعرف فضله.

وهكذا نرى آيات الله في واقعٍ، فنتسق مع الكون كُلِّه في التسبيح بحمده.

نقرأُ الآيةَ في كتاب الله ﷻ، ونرى دلالتها في أنفسنا وفي الآفاق من حولنا. فلا نجحدُ فضلَ الله علينا، ولا نُنكرُ نِعَمَهُ، ونحن نرى أن ما طالبنا به - من إيمانٍ ويقينٍ - قد يَسَّرَ أسبابَه، وجعله في فطرةِ الخَلق دون تكلُّف أو عُسْرٍ.

فلنتدبر هذا الاتساق في مخاطبة الإنسان؛ لنتمسك باليقينِ والرُّشدِ والإيمان.

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الملك: ٣٠.

(٢) الجاثية: ١- ٦.